



شرح تفسير آيات من القرآن الكريم

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب

الدرس (٣١)

شرح الشيخ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر حفظهما الله تعالى

١٤٤١/١٢/٠٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي والثلاثون

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على عبد الله ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فيقول شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب أجزل الله له الأجر والثواب في كتابه: "تفسير آيات من القرآن

الكريم"

قال في تفسير آيات من سورة الأعراف: قال الله - عز وجل - : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٧]، قال - رحمه الله - فيه مسائل:

(الأولى: معرفة أن لا إله إلا الله كما في قصة آدم وإبليس، ويعرف ذلك من عرف أسباب الشرك وهو الغلو في الصالحين، والجهل بعظمة الله.)

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، واجعل ما نتعلمه حجة لنا لا علينا، وأصلح لنا شأننا كله لا إله إلا أنت.

أما بعد: أيها الإخوة الكرام، هذه الآيات الكريمات العظيمات من سورة الأعراف، والتي ساقها هذا الإمام المجدد المصلح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - مستنبطاً منها **الفوائد العظيمة** التي تمس الحاجة إلى بيانها والتنبية عليها، ولا سيما فيما يتعلق بطالب العلم وأهل العلم، وما تحمّلوه من مسؤولية عظيمة بما آتاهم الله تبارك وتعالى من علم وفهم لآياته، ودراية بالأدلة لكلامه وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم.

وهذه الآيات الكريمات فيها مثل **ضربة الله سبحانه وتعالى لعلماء السوء** - أعاذنا الله وإياكم، ووقانا ووقاكم - مثل **ضربة الله سبحانه وتعالى لعلماء السوء الذين يعملون بخلاف العلم الذي تعلموه، بحيث يكون علمهم يأمرهم بشيء، وواقعهم وحياتهم وعبادتهم وعملهم شيء آخر، فهذا مثل ضربة الله تبارك وتعالى لعلماء السوء الذين**

يعملون بخلاف العلم الذي تعلّموه، فالعلم الذي تعلّموه يأمر مثلاً بشيء فلا يفعلونه، وينهى عن شيء فيفعلونه، ومن كان كذلك فإنه ظلّم نفسه ظلماً عظيماً، وجئى عليها جناية كبيرة، لأن الله عز وجل آتاه آياته وعلمّه وفهمه، وعرف الحق وعلمه وفهمه، وعنده دراية به، فإذا انسلخ من الآيات بعد أن علمه الله سبحانه وتعالى إياها فهذه جناية عظيمة جناها على نفسه، وظلّم بالغ ظلّم به نفسه.

ويقول الله تبارك وتعالى في هذا المثل: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: أيها النبي، ﴿عَلَيْهِمْ﴾: أي على كفار قريش، أو على أهل الكتاب محدّراً ومخوّفاً ومنذراً، ﴿نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾ أتلّ عليهم هذا النبأ، وأعلمهم بهذا الخبر، خبر الذي آتيناه آياتنا، ومعنى ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ أي: علمناه الآيات، فعرفها وفهمها وحفظها، وعرف أحكام الله، عرف شرعه، عرف حدوده، ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ أي من الله سبحانه وتعالى عليه بالعلم والفهم والدراية، ﴿فَانْسَلَخْ مِنْهَا﴾ أي: أنه جعل تلك الآيات البيّنات والدلائل الواضحات وراء ظهره، ولم يُقم لها وزناً، ولم يرفع بها رأساً، وأخذ يعمل بهواه، وأخلد إلى الأرض، مال إلى الدنيا وركن إليها، ولم يعمل بآيات الله تبارك وتعالى، يعلم أن الأمر حرام فيأتيه، وأنه واجب فلا يفعله، مُنسلخاً من آيات الله تبارك وتعالى انسلاخ الحيّة من جلدها، ووصفه بهذا الوصف فيه تنبيه على خروجه من الدين، لأن الانسلاخ إنما يكون بترك الدين والتخلّي عنه كفرة بالله سبحانه وتعالى وكفرة بآياته، بسبب اتباع الهوى والخلود إلى الأرض، والركون إلى الدنيا ومتاعها الزائل الفاني.

قال: ﴿فَاتَّبِعْهُ الشَّيْطَانُ﴾ لما انسلخ من الآيات اتّبعه الشيطان، وأتبعه تخلف في الدلالة عن تبعه، لأن اتّبعه تعني معنى الإدراك والتّمكّن، فاتّبعه الشيطان أي: أدركه الشيطان وتمكّن منه، وهذا فيه التنبيه إلى أن العبد ما دام مُستمسكاً بآيات الله، مُعتصماً بها ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٣] مُعتنياً بها، محافظاً عليها، فليس للشيطان عليه سبيل، لأن الشيطان لا سبيل له على من كان مُستمسكاً بآيات الله، مُعتصماً بحبل الله تبارك وتعالى، ولهذا لما انسلخ هذا من آيات الله تبارك وتعالى اتّبعه الشيطان أي: تمكّن منه الشيطان، وأصبح يقوّد الشيطان حيث شاء من أمكنة وأعمال وأفعال وأقوال. ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ والغواية ضد الرّشاد، وهي فساد العمل وانحلال الخلق وضياع الدين، فكان من الغاوين. قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ وهذا فيه أن الأمر لله سبحانه وتعالى من قبل ومن بعد، له جل وعلا المشيئة النافذة والقُدرة الشاملة، ولا مُهتدي إلا من هداه الله، ولا صالح إلا من أصلحه الله، ولا مُوفّق إلا من وفقه الله، ولا ثابت على الحق والهدى إلا من ثبتّه الله تبارك وتعالى، فالأمر بيده جل وعلا.

قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ الأمر بمشيئة الله سبحانه وتعالى، ﴿لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ رفَعناه: فيه أن الله عز وجل هو الرّافع الخافض، المُعطي المانع، القابض الباسط، المعز المُذل، الذي بيده جل وعلا أزمنة الأمور، من رفعه الله سبحانه

وتعالى فلا خافض له، ومن حَقَّقْهُ فلا رافع له، ومن أعطاه الله سبحانه وتعالى فلا مانع لما أعطاه، ومن مَنَعَهُ فلا مُعْطِي لمن مَنَعَهُ، يُعْطِي ويمنع، ويخفف ويرفع، ويقبض ويبسط، ويعز ويذل، كل يوم هو في شأن، له الأمر - سبحانه وتعالى - من قَبْلُ ومن بعد ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، فالأمر لله سبحانه وتعالى. ولهذا العبد لا يَرَكُنْ لا إلى علمه ولا إلى فهمه ولا إلى ذكائه ولا إلى نجاته ولا إلى غير ذلك، وإنما يَلْجَأُ إلى الله أن يحفظه وأن يُسَلِّمَهُ وأن يُثَبِّتَهُ وأن يُعِيذَهُ من الضلال، وأن ينفعه، وأن يرفعَه، ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، الرَّافع هو الله، والخافض هو الله، والمعطي هو الله، والمانع هو الله، والمعز هو الله، والمذل هو الله، والأمر له جل في علاه من قبل ومن بعد.

قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ أي: بالآيات، ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ والخلود إلى الأرض الرُّكُونُ إلى الدنيا، والتَّهَافُتُ عليها، واللَّهْفُ وراءها، وجعلها أكبر همٍّ ومَبْلَغَ عِلْمِهِ، وهذا فيه فِعْلُ العبد الذي جَنَى به على نفسه؛ خَلَدَ إلى الأرض فكانَ ذلك حِجَاباً له عن الخير، ومانعاً مِنَ الرِّفْعَةِ والغُلُوِّ، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ جمع بين هاتين السَّيِّئَتَيْنِ والخَصْلَتَيْنِ:

-الخلود إلى الأرض بالرُّكُونِ إليها،

-ومُلازِمَةُ ما يتعلق بها ركوناً وخلوداً واهتماماً وشغلاً للوقت بها لا همَّ له إلا الأرض والدنيا، هِمَّتُهُ أرضية ليست سماوية علوية، وإنما كل هِمَّتِهِ في التراب، ليست له همة في العالي والرفيع، وإنما هِمَّتُهُ كُلُّهَا في الأرض وفي التراب، مُتَّبِعاً لهواه، ليس مطيعاً لربه سبحانه وتعالى ومُؤَلَّاه، فمن كان هذا شأنه فما هو مثله؟ قال: ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ من كان هذا شأنه فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ هذا الحيوان الخسيس، الذي هو من أَوْخَسِ الحيوانات في أَحْسَرِ أحواله، لأن الكلب من أَوْخَسِ الحيوانات، وتَتَنَاهَى حَسَنَتُهُ في هذه الحال، كَوْنُهُ يَلْهَثُ في الراحة والشدَّة، في العطش والرَّيِّ، في كل أحواله يلهث، ﴿كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ﴾ هذا مثل ضَرْبِهِ الله سبحانه وتعالى العليم الخبير جل في علاه لمن كان بهذه الصفة، آتاه الله آياته، عَرَفَ الآيات، عرف الحجج، عرف النصوص، عرف أحكام الله، عرف شرع الله، عرف الحلال، عرف الحرام، وتَخَلَّى عن ذلك، انسلخ من آيات الله وَرَكَّنَ إلى الأرض وَمَتَاعَهَا الرِّائِلَ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، لا يَعْمَلُ إلا بما تَهْوَاهُ نَفْسُهُ وَتَمِيلُ إليه شَهْوَتُهُ، ولا يَلْتَفِتُ إلى حلال أو حرام أو حدود أو أحكام، كل ذلك لا يلتفت إليه، ولا يرفع له رأسه، وإنما هُمُّهُ الأرض والركون إليها واللَّهْفُ وراءها متبعاً لهواه، ليس مُطِيعاً لربه تبارك وتعالى ومولاه.

وأهل العلم في كتب التفسير قالوا عن الاسم الموصول في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ﴾ هذا الاسم الموصول قوله "الذي" من المراد به؟ هل هو شخص معين أو اسم جنس؟

هل هو شخص مُعَيَّن نَزَلَت الآية في بيان حاله، أو أنه اسم جنس لا يختص بشخص معين؟

١- فمن أهل العلم من ذهب إلى الأول، قالوا: إن هذا شخص مُعَيَّن. واختلف في تعيينه إلى أقوال عديدة ذكَّرها أهل العلم، من أشهرها أنه رجل من بني إسرائيل يُقال له بلعان بن باعورة، وأن الله عز وجل آتاه الآيات فيما ذكَّر المفسرون في أخبار عنه، وأنه كان مُسْتَجَاب الدعوة، وعلى عِلْم بآيات الله تبارك وتعالى، وعَرَفَهُ الله سبحانه وتعالى بآياته، لكنه انسلخ من آيات الله تبارك وتعالى، وأُخْلِدَ إلى الأرض واتَّبَعَ هواه، فَضَرَبَ الله سبحانه وتعالى له هذا المثل.

وقيل إنه أُمِّيَّة بن أبي الصَّلْت، وآتاه الله عِلْماً وفهماً وعِلْماً بالكتاب، وِدْرَايَةً بأن نبياً سَيُبعَث وأنَّ أوانه قد آن، وزَمَانَه قد جاء، وكان يؤمِّل أن يكون هو النبي، ثم لما بُعِث نبينا عليه الصلاة والسلام حَسَدَه، وقد عَرَفَ أنه هو النبي المرسل من رَبِّ العالمين، لكنه انسلخ من آيات الله، واتَّبَعَ هواه.

وقيل إن المراد به أبو عامر الرَّاهِب، وكان من أهل الكتاب وعُلَمائهم وَعُبَّادِهِم، لكنه أيضاً حَسَدَ النبي عليه الصلاة والسلام، وانسلخ من آيات الله، وكان هو من وراء بناء مسجد الضُّرَّار، فقليل إنه هو المراد.

إلى غير ذلك من أقوال ذكرها أهل العلم.

٢- والقول الآخر أنه ليس شخصاً معيناً، وإنما هو اسم جنس يتناول كلَّ من كانت هذه صِفَتُهُ، ولهذا في تمام هذا السياق المبارك قال الله تبارك وتعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ مما يدل على أن الأمر عام لكل من كان كذلك.

وعلى كلِّ سواءٍ كانت هذه الآية في شخص مُعَيَّن نَزَلَت لبيان حاله، فإن العبرة بالعموم -عموم الألفاظ-، وأسباب النزول تُفِيد في توضيح المعنى لا تَحْصِيصه بمن نَزَلَت فيه الآية، فالآية فيها هذا التهديد وهذا الوعيد، وهذا المَثَل الذي ضَرَبَهُ الله سبحانه وتعالى لمن كانت هذه حاله. ولهذا قال أهل العلم إن هذه الآيات ضَرَبَهَا الله سبحانه وتعالى مَثَلًا لِعُلَمَاءِ السُّوء الذين يعملون بخلاف العلم الذي تَعَلَّمُوهُ.

يقول أبو المُظَفَّر السَّمْعَانِي فِي كِتَابِهِ التَّفْسِيرُ؛ يَقُولُ: (وَهَذِهِ أَشَدُّ آيَةٍ فِي حَقِّ الْعُلَمَاءِ، وَقَلَّمَا يَخْلُو عَنْ أَحَدٍ هَذِينَ عَالَمٍ: الرُّكُونُ إِلَى الدُّنْيَا، وَمُتَابَعَةُ الْهَوَى)، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَصَمَهُ اللَّهُ وَنَجَّاهُ، وَقَدْ مَرَّ مَعَنَا فِي الْآيَةِ قَوْلُ اللَّهِ: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾.

ذَكَرَ الشَّيْخُ -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى- تَحْتَ هَذِهِ الْآيَاتِ فَوَائِدَ عَدِيدَةً مُسْتَنْبِطَةً مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ، بِدَأْهَا بِ:

المسألة الأولى: (معرفة أن لا إله إلا الله)، أي: معرفة توحيد الله سبحانه وتعالى، وهذا ظاهر وواضح، ومن يقرأ هذه الآيات ويفهمها يفهم التوحيد، وأن الأمر لله سبحانه وتعالى من قَبْلُ ومن بَعْدُ، وأنه لا صلاح للعبد إلا بُلُجُوئِهِ إِلَى اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ وَإِخْلَاصَ الْعَمَلِ لَهُ، وَإِفْرَادَهُ وَحْدَهُ بِالْعِبَادَةِ، وَاعْتِقَادِهِ أَنَّهُ وَحْدَهُ هُوَ النَّافِعُ الضَّارُّ، الرَّافِعُ الْخَافِضُ، الْمُعْطِي الْمَانِعُ، الَّذِي بِيَدِهِ أَرْمَةُ الْأُمُورِ، فَلَا يُلْجَأُ إِلَّا إِلَيْهِ، وَلَا يُتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا تُطَلَّبُ هِدَايَةٌ إِلَّا مِنْهُ، فَالْأَمْرُ لَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، فَهَذِهِ الْآيَاتُ فِيهَا مَعْرِفَةٌ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، (كَمَا فِي قِصَّةِ آدَمَ وَابْلِيسَ) وَهَذَا مَرَّ بَيَانَهُ فِيمَا سَبَقَ مَعْنَا مِنْ ذِكْرِ لَتَلِكِ الْقِصَّةِ، قَالَ: (وَيَعْرِفُ ذَلِكَ مَنْ عَرَفَ أَسْبَابَ الشَّرِكِ: وَهُوَ الْغُلُو فِي الصَّالِحِينَ، وَالْجَهْلُ بِعِظَمَةِ اللَّهِ)، الْغُلُو فِي الصَّالِحِينَ هُوَ الْآفَةُ الَّتِي أَدَخَلَتْ خِلَاطًا فِي الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فِي عِبَادَةِ غَيْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِذَا قُرِئَتْ هَذِهِ الْآيَةُ عَرَفَتْ أَنَّ الرَّجُلَ الصَّالِحَ أَوْ الرَّجُلَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ أَوْ الرَّجُلَ الَّذِي عِنْدَهُ دِرَايَةٌ بِآيَاتِ اللَّهِ أَوْ أَنَّهُ أَيْضًا مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ هُوَ نَفْسُهُ عَلَيْهِ خَطَرٌ إِلَّا إِنْ حَفِظَهُ اللَّهُ، إِلَّا إِنْ نَجَّاهُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، هُوَ نَفْسُهُ عَلَيْهِ خَطَرٌ، وَلَا عَاصِمٌ لَهُ وَلَا مُنَجِّيٌ لَهُ وَلَا حَافِظٌ لَهُ إِلَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ، فَكَيْفَ يُلْجَأُ إِلَيْهِ؟! كَيْفَ يُلْجَأُ إِلَيْهِ حَيًّا وَكَيْفَ يُلْجَأُ إِلَيْهِ بَعْدَ أَنْ يَمُوتَ؟! لَوْلَا الْعِمَايَةُ الَّتِي أَصِيبُ بِهَا مِنْ تَعَلَّقُوا بِغَيْرِ اللَّهِ، وَتَعَلَّقُوا بِالصَّالِحِينَ.

الصَّالِحُ نَفْسُهُ فِي حَيَاتِهِ لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ أَمْرًا، وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ هِدَايَةً، وَلَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ صِلَاحًا وَلَا فَلَاحًا وَلَا نَجَاةً، فَهَذَا الْآنَ رَجُلٌ كَانَ عِنْدَهُ عِلْمٌ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَقَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْمَفْسَرِينَ كَانَ مُسْتَجَابُ الدَّعْوَةِ، لَكِنْ رَكَنَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، وَانْسَلَخَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ، وَالْحَي لَا تُؤْمِنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ مَهْمَا كَانَ عِلْمُهُ وَمَهْمَا كَانَ صِلَاحُهُ.

فَإِذَا هَذَا مِمَّا يَبْصُرُ الْعَبْدُ بِالتَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَنَّ الْأَمْرَ لِلَّهِ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ، وَأَنَّهُ لَا يُتَعَلَّقُ بِأَيِّ مَخْلُوقٍ كَانَتْ مِنْ كَانَ، مَهْمَا كَانَ فَضْلُهُ وَمَهْمَا كَانَتْ مَكَانَتُهُ، وَلَا يَكُونُ التَّعَلُّقُ وَالِاتِّجَاءُ وَالتَّوَكُّلُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. نَعَمْ.

قال -رحمه الله تعالى-: (الثانية: معرفة أن محمداً رسول الله، يعرفه من عرف عداوة علماء أهل الكتاب له).

وهذه المسألة الثانية: التي تستفاد من هذا السياق المبارك: معرفة أن محمداً رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وما ذكر أهل العلم؛ ومَرَّ الإشارة إلى شيء من ذلك: مُعاداة أهل الكتاب -ومن كان عندهم علم بالكتاب- مُعادتهم للنبي عليه الصلاة والسلام مع علمهم بصدقه، وأنه نبي حق مُرسل من رب العالمين، يعرفون ذلك كما يعرفون أبنائهم، لكنهم حسدوه صلواته الله وسلامه عليه على ما آتاه الله سبحانه وتعالى من فَضْلِهِ، فهذا فيه (معرفة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم، يعرفه من عرف عداوة علماء أهل الكتاب له) وعندما يَنْظُرُ أولئك في عداوتهم الشديدة يجد أنهم ما كانوا يَنْقِمُونَ عليه شيئاً، ولم يَكُنْ عندهم عليه إلا حسد امتلأت قلوبهم به على ما آتاه الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من فَضْلِهِ.

قال -رحمه الله تعالى-: (الثالثة: معرفة الدين الصحيح والدين الباطل، لأنها نزلت في إبطال دينهم الذي نصروا، وتأيد دينه الذي أنكروا).

(الثالثة: معرفة الدين الصحيح والدين الباطل)، قال: (لأنها نزلت في إبطال دينهم) وهذا بناءً على بعض الروايات في سَبَب نزول هذه الآيات، وأنها في رجل من بني إسرائيل في زمن موسى عليه السلام، وكان قد آتاه الله سبحانه وتعالى آياته، ولكنه انسَلَخ من الآيات، وأخلد إلى الأرض واتَّبَعَ هواه، وطلبوا منه أن يعاوِهم ضد نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه، فركن إلى ذلك واتَّبَعَ هواه، وأخلد إلى الأرض في قصة ذكرها أهل التفسير سبباً لنزول هذه الآيات.

فيقول الشيخ -رحمه الله-: (معرفة الدين الصحيح والدين الباطل، لأنها نزلت في إبطال دينهم الذي نصروا، وتأيد دين الله الذي أنكروا).

قال -رحمه الله تعالى-: (الرابعة: معرفة عداوة الشيطان، ومعرفة حيله).

(الرابعة: معرفة عداوة الشيطان ومعرفة حيله) وهذا أمر لا بُدَّ أن يعرفه المسلم، ولا بد أن يكون على دِرَايَةٍ به، ولا بد أن يَتَّخِذَ هذا الشيطانَ عدواً ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦] لا بد من ذلك.

ومثل هذه القصص تكشف للمسلم عن مَكْرِ الشيطان وحيله وطرائقه في إبعاد الناس عن دين الله تبارك وتعالى، وصَدَّهِمْ عن الحق والهدى، وأن كل من ابتعد عن القرآن وعن وَحْيِ الله تبارك وتعالى تَسَلَّطَ عليه الشيطان ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (٣٦) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ (٣٧) ﴿[الزخرف: ٣٧-٣٦].

فالعبد كلما ابتعد عن آيات الله، عن القرآن، عن كلام رسول الله ﷺ، كلما كان ذلك سبباً لَتَمَكُّنُ الشيطان منه، ولهذا لاحظ قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَاتَّبِعْهُ الشَّيْطَانُ﴾ جاءت بَعْدَ انسلاخه من الآيات، وتخلّيه عن الآيات، وهذا يستفاد منه أن الإنسان كلما ابتعد عن الآيات كلما كان الشيطان إليه أقرب وإلى صده عن سبيل الله تبارك وتعالى أمكن. ففي هذا معرفة عداوة الشيطان ومعرفة حيله. نعم.

قال -رحمه الله-: (الخامسة: أن من انسلخ من الآيات أدركه الشيطان، ومن لم ينسلخ منها حَمَتَهُ منه، ثم صار أكثر من يَنْتَسِبُ إلى العلم يَظُنُّ العكس).

(الخامسة: أن من انسلخ من الآيات أدركه الشيطان) لأنه قال: ﴿فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَاتَّبِعْهُ الشَّيْطَانُ﴾ وَعَرَفْنَا الفرق بين تَبَعَهُ وَأَتَّبَعَهُ، أَتَّبَعَهُ أي: أَذْرَكَه، هذا معناها أدركه وتمكّن منه، فهذا الإدراك والتمكن من الإنسان جاء على إثر الانسلاخ، ولهذا عطفت عليها بالفاء ﴿فَاتَّبِعْهُ﴾، والفاء تفيد التراخي والفورية.

وهذا أيضاً يستفاد منه أنه فوراً، مجرد ما يتخلى الإنسان عن الآيات ويتبع عنها فوراً يأتيه الشيطان ويتمكّن منه.

قال: (أن من انسلخ من الآيات أدركه الشيطان، ومن لم ينسلخ منها حَمَتَهُ منه) أي: من كان متمسكاً بآيات الله محافظاً عليها، فليس للشيطان عليه سبيل ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩].

قال: (ثم صار أكثر من ينتسب إلى العلم يظن العكس) لأنه عندما يُنْظَرُ في أحوال كثير ممن ينتسب إلى العلم لا يُقِيمُ لآيات القرآن وزناً، تَجِدُ الواحد منهم إذا احتجّ بقلقه، أو برأيه، أو بفلسفة ومنطق، أو بقصص وحكايات، وتجد منهم من إذا أُورِدَتْ عليه الآية رَدَّهَا بهجوم سافر، لا لشيءٍ إلا لأنها تُخَالِفُ هواه، أو تخالف ما نشأ عليه، وإذا ذُكِرَ له من الأحاديث الصّحاح الثابتة عن الرسول عليه الصلاة والسلام تَهَجَّمُ تهجماً شنيعاً في رَدِّهَا، لا لشيءٍ إلا لأنها تُخَالِفُ هواه.

ولهذا يقول الشيخ -رحمه الله-: (ثم صار أكثر من ينتسب إلى العلم يظن العكس) يظن العكس أي: أنه سلامته ونجاته بالبعد عن الآيات، والاشتغال بالعقليات أو بالفلسفات أو بالآراء أو بالمنطقيات أو غير ذلك. نعم.

قال -رحمه الله-: (السادسة: خَوْفُ الخاتمة كما في حديث ابن مسعود -رضي الله عنه-).

(السادسة: خوف الخاتمة) لأن هذا آتاه الله الآيات، أصبح عنده علم وفهم، قيل إنه أيضاً كان مستجاب الدعوة، وَصَلَ إلى هذه الرتبة، ثم انسلخ من الآيات، هذا يستوجب للعبد أن يخاف سوء الخاتمة، وأن يكون دائماً يسأل الله ربه أن يثبتته.

وكان أكثر دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام: "يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك"، قالت له أم سلمة: أو إنَّ القلوب لتتقلب؟ قال: (ما من قلبٍ إلا هو بين أَصْبُعَيْنِ من أصابع الرحمن، يُقَلِّبُهُ كيف يشاء، فإن شاء أقامه، وإن شاء أزاعه).

وفي الدعاء في القرآن: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

فمن فوائد هذه الآيات الخوف من سوء الخاتمة، كما في حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: (وإن أحكمم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع) وصل، مسافة قصيرة جداً (حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخلها).

ولهذا العبد يجب عليه أن يخاف سوء الخاتمة، ودائماً يسأل ربه حسن الختام والثبات على الحق والهدى، ويُلحُّ على الله جل وعلا: "يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك"، والدعوات الماثورة عن نبينا عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى كثيرة، من عظيم الدعاء الوارد في ذلك ما ثبت في الصحيحين من دعاء نبينا عليه الصلاة والسلام، يقول: "اللهم لك أسلمت، وبك آمنت، وعليك توكلت، وإليك أنبت، وبك خاصمت، أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تُضِلَّنِي، فأنت الحي الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون"، فهذا أمر عظيم مستفاد من هذا السياق المبارك، وهو خوف سوء الختام.

قال -رحمه الله-: (السابعة: عدم الاغترار بغزارة العلم).

(السابعة: عدم الاغترار بغزارة العلم) لأن الله سبحانه وتعالى قال عن ذلك الشخص أو صاحب تلك الحال وذلك الوصف، قال: ﴿آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾ ففيه أن الله علَّمه وفهَّمه، وأصبح على علم وفهم ودراية بآيات الله تبارك وتعالى، لكنه مع هذا العلم وتلك الدراية وذاك الاطلاع انسلخ من آيات الله.

فإذاً عدم الاغترار بغزارة العلم، وفي السياق قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾، ما هي؟ الآيات؛ ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾.

فيستفاد من ذلك أن مجرد العلم وحده لا يكفي، إن لم يرفعك الله به، إن لم ينفعلك الله به، العلم وحده لا يكفي، لو حفظت المتون كلها، وقرأت العلوم جميعها، وأطلعت على المعارف من أوسع أبوابها، هذا كله لا نجاة لك به إلا أن يرفعك الله، والرافع هو الله، ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

ففي هذا السياق أن مجرد العلم لا يرفع صاحبه، إذاً لا يغتر الإنسان، لا يغتر بنفسه، لا يقول أنا حفظت القرآن كله، أو حفظت الصِّحاح، أو حفظت جميع المتون، أو أنني تعلمت كيت وكيت، لا يغتر بذلك، بل يا رب سلم سلم، يسأل الله تبارك وتعالى أن يحفظه وأن يرفعه وأن ينفعه، ولا يغتر بشيء من علمه، بل يكون خائفاً، خائفاً من الله، خائفاً من عقاب الله سبحانه وتعالى، ويرجو ربه سبحانه وتعالى النجاة والسلامة.

ومما يُروى من الأخبار فيما يتعلق بالشيخ ابن عثيمين -رحمة الله عليه- يقولون: أن شخصاً بعد الفجر كان جالساً حَلَفَ الشيخ، والشيخ ما كان يشعر به ولا يدري به، جالساً بعد الفجر يذكر الله، فأخذه شيءٌ من النعاس -الذي هو الشيخ محمد رحمة الله عليه-، فضرب على فخذ نفسه، وقال: "يا محمد النار، يا محمد النار". يخوف نفسه بالنار، ويُذكر نفسه بالنار، فمثل هذه المعاني عندما يُخَضِّرُها الإنسان في قلبه، وأن هناك نار وهناك عقاب ووقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى لا يَغْتَرُ بِعُلُومِهِ مهما كانت، لا يغتر بغزارتها، لا يغتر بكثرتها، بل لا يزال يخوف نفسه ويسأل الله الثبات، يسأل الله الهداية، يسأل الله العون. نعم.

قال -رحمه الله-: (الثامنة: عدم الاغترار بصلاح العمل).

(الثامنة:) وهذه مثلُ التي قبلها (عدم الاغترار بصالح العمل) إذا كان وُفِّقَ لعبادات وطاعات كثيرة من قيام ليل، من صيام، صدقات، نفقات، بذل، بُعِدَ عن المحرمات، لا يغتر بصالح عمله، وإنما مع كثرة الأعمال -كثرة الطاعات- لا يغتر بشيء منها، وإنما يكون دائماً خائفاً، وهذا الخوف مع العلم ومع كثرة العمل هو أَمَارَةُ الإيمان والصدق، مثلما قال ربنا جل وعلا في وصف المؤمنين الكُمَّلِ، قال: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠] وجلة أي: خائفة، يُقَدِّمون طاعات وعبادات كثيرة وهم خائفون أن تُرَدَّ.

ابن عمر أو حذيفة يقول: ((لو أعلم أنه تُقْبِلَت مِنِّي سجدة واحدة خير لي من الدنيا وما فيها)) ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] فيَقْدِم وهو خائف لا يغتر بأعماله، لا يغتر بصيامه، لا يغتر بصدقاته، لا يغتر بعباداته، لا يغتر بشيء من أعماله، بل يرجو الله سبحانه وتعالى أن يتقبل منه، ويكون خائفاً أن لا يتقبل منه،

مثلما قال الحسن البصري رحمه الله تعالى، قال: ((إن المؤمن جَمَعَ بين إحسان ومَخَافَةٍ، والمنافق جمع بين إساءة وأمن))، المؤمن يُحَسِّن ويخاف، لا يُحَسِّن ويغتر، بل يحسن ويخاف ولا يزال خائفاً يرجو ما عند الله سبحانه وتعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

قال -رحمه الله-: (التاسعة: عدم الاغترار بالكرامات وإجابة الدعاء).

(التاسعة: عدم الاغترار بالكرامات وإجابة الدعاء) لو أنه أكرم بأمر من الأمور الخارقة للعادة، أو كان أيضاً وَصَلَ إلى أن كان مستجاب الدعوة، يدعو فيستجاب له، لا يغتر بذلك، بينما بعض الناس هو نفسه يغتر والآخرون يغترون به، وقلوبهم تتعلق به، وهذا فيه أيضاً ما نَبَّه عليه الشيخ -رحمه الله- فَهَم التوحيد، من كان أكرم بكرامة من الكرامات أو أمر من الأمور الخارقة للعادة أو كان مُستجاب الدعوة لا يغتر بذلك، ولا يُغتر به أيضاً، لا يغتر هو بذلك ولا يُغتر به، ولهذا قال: (عدم الاغترار).

قوله: (عدم الاغترار) يتناول نَفْس الشخص الذي حَصَلَ كرامة أو كان مستجاب الدعوة، ويتناول آخرين أيضاً، لا يغترون به، وهذا الذي قيل إنه نزلت فيه هذه الآيات مما ذَكَر جماعة من المفسرين عنه أنه كان مستجاب الدعوة.

فإذاً حتى لو كان شخص مستجاب الدعوة لا يغتر هو ولا أيضاً الآخرون يغترون به، لا يغتر به الآخرون، فعدم الاغترار بالكرامات وإجابة الدعاء.

وإذا تأمل المتأمل في أحوال طوائف الضلال كم اغترُّوا بالخوارق، وما يسمى بالكرامات، وبعضها مُخْتَلَق ومُصْطَنع، وحكايات مُفْتَرَات، كم من خلق اغتروا، وأصبحوا يتعلقون بغير الله، ويلجؤون إلى المقبورين، ويتهافَتون على القبور، وإذا ذَهَب إلى القبر أخذ يُحَدِّثون بعضهم يقولون صاحب هذا القبر كان مستجاب الدعوة، وكان وكان وكان وكان إلى آخره، لا تَعْتَر بذلك، لا يغتر الإنسان بهذه الأشياء، من كان حياً وهو مستجاب دعاء أو له شأن في العبادة لا تؤمن على الحي الفتنه، ومن كان ميتاً أَفْضَى إلى ما قَدَم وَلَقِيَ ربه، وهو رَهِيئُ عمله، وإذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: علم يُنْتَفَع به، أو ولد صالح يدعو له، أو صدقة جارية قَدَّمَهَا في حياته، فلا يغتر بشيء من ذلك. نعم

قال -رحمه الله-: (العاشرة: أن الانسلاخ لا يُشْتَرَط فيه الجهل بالحق أو بعضه).

(أن الانسلاخ لا يُشترط فيه الجهل بالحق أو بعضه) وهذا الذي آتاه الله آياته انسلخ منها، فكان على علم بآيات الله وإطلاعه عليها، فانسلخ من آيات الله تبارك وتعالى. نعم.

قال -رحمه الله-: (الحادية عشرة: أن من أخلد إلى الأرض، واتبع هواه، فلو عَرَفَ الحق وأحبه وعرف الباطل وأبغضه).

(الحادية عشرة: أن من أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فلو عرف الحق وأحبه، وعرف الباطل وأبغضه) هكذا الجملة، وهكذا أيضاً في الأصول، لكن لعل العبارة أخذاً من دلالة السياق ينقُصُها حرف: (أن من أخلد إلى الأرض واتبع هواه فقد انسلخ من آيات الله ولو عرف الحق وأحبه وعرف الباطل وأبغضه) إذاً أخلد إلى الأرض واتبع هواه فإنه ينسلخ من آيات الله، بمعنى أن هاتان إذا اجتمعتا أعطبت الإنسان: الخلود إلى الأرض، واتباع الهوى، وتُصبح نفسه بذلك كما تقدم الإشارة إلى ذلك نفس أرضية، نفس دنيئة ليست سماوية علوية، ترجو ما عند الله سبحانه وتعالى.

قال -رحمه الله-: (الثانية عشر: معرفة الفتنة وأنه لا بد منها، فليَتَأَهَّبْ وليَسْأَلِ الله العافية، لقوله: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢]).

الآيتين هكذا في الأصل، (الثانية عشر: معرفة الفتنة وأنه لا بد منها)، لأن هذه الحياة دار ابتلاء وامتحان، فإذاً معرفة الفتنة وأنها -الفتنة- لا بد منها، وأورد قول الله سبحانه وتعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ٢] فالفتنة لا بد منها، ولهذا ليتأهب العبد، وليتأهب يكون: بالعلم والعمل والدعاء واللجوء إلى الله سبحانه وتعالى، فمن صَلَحَتْ حاله مع الله في الرخاء حَفِظَهُ الله سبحانه وتعالى في الشدائد والفتن، فالعبد عليه في رخائه وعافيته أن يُقْبِلَ على ربه عبادةً ودعاءً، وإقبالاً على العلم، وعلى طاعة الله سبحانه وتعالى لِيَحْفَظَهُ ربه جل وعلا وَيُنَجِّيهِ من الفتن.

وفي أيضاً السنة الوصية بالتعوذ بالله تبارك وتعالى من الفتن، تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

قال -رحمه الله-: (الثالثة عشرة: عدم أمن مكر الله).

(الثالثة عشرة: عدم أمن مكر الله) وهذا واضح في السياق، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]،

فلا يأمن الإنسان المكر، بل أَمُنْ مَكْرَ اللَّهِ من الكبائر، فالواجب على العبد أن يأتي بالعبادات والطاعات، ويكون بين الرجاء والخوف، يرجو رحمة الله، ويخاف عذابه سبحانه وتعالى، وبالرجاء والخوف والجمع بينهما سلامة من الأمن من مكر الله، وسلامة من القنوط من رحمة الله، فالذي يرجو رحمة الله لا يقنط، والذي يخاف عذاب الله لا يأمن من مكر الله، ففي الجمع بين الرجاء والخوف سلامة من الأمن من مكر الله، وسلامة من القنوط من رحمة الله، وكل من الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله من كبائر الإثم وعظائم الذنوب.

قال -رحمه الله-: (الرابعة عشرة: عقوبة العاصي في دينه ودنياه).

(الرابعة عشرة: عقوبة العاصي في دينه ودنياه) لأن المعصية لها عقوبة، ومثلما أشار الشيخ: (عقوبة في الدين وعقوبة في الدنيا)، أما في الدين فإن المعصية تدعو المعصية الأخرى، وتجري إليها، ويتهاوى صاحبه في المعاصي، وأما في الدنيا فكم لها من الأضرار على الإنسان في دنياه، في صحته، في رزقه، في أموره، في حياته.

قال -رحمه الله-: (الخامسة عشرة: ذُكِرَ مشيئة الله، وذُكِرَ السبب من العبد).

(ذُكِرَ مشيئة الله، وذُكِرَ السبب من العبد) جُمع بينهما في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فذُكِرَ المشيئة في قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ وذُكِرَ السبب من العبد في قوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾

وهذا فيه كما قدمت الإيمان بأن الله الخافض الرافع، هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه الله سبحانه وتعالى من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو الموضوع. نعم.

قال -رحمه الله-: (السادسة عشرة: أن محبة الدنيا تكون سبباً لردة العالم عن الإسلام).

(السادسة عشرة: أن محبة الدنيا) في قوله: ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ يعني رضيَ بالدنيا وأصبحت الدنيا هي مَبْلَغَ علمه، وهي أكبر همة وغاية مُبْتَغَاهُ، فإذا أحبَّ الدنيا وكانت هي مَقْصُودُهُ وغايته تكون سبباً لردة العالم عن الإسلام، وإذا كانت الدنيا إذا أحبها وتعلق قلبه بها سبباً لردة العالم؛ فكيف بغير العلم؟! إذا كانت سبباً لردة العالم الذي آتاه الله آياته، ويحفظ الآيات والنصوص والأدلة، وفهم المعاني وتكون سبباً لردته إذا ركن إليها، فكيف بغير العلم؟! بغير العلم؟!

قال -رحمه الله-: (السابعة عشرة: تمثيل هذا العالم بالكلب في اللّهث على كل حال).

قال: (تمثيل هذا العالم بالكلب في اللّهث على كل حال)، وكما قدمت الكلب من أسوأ الحيوان، وحال اللّهث هي أسوأ حالات الكلب، فمثّل هذا العالم الذي أُخْلِدَ إلى الأرض واتَّبَعَ هواه وانسلخ من آيات الله، مُثِّل بالكلب في اللّهث على كل حال.

ومعنى (على كل حال) أي: حال التعب والعطش وحال الراحة، فالكلب يلهث على كل حال، والعالم إذا أُصِيب قلبه باللّهف على الدنيا، أصبح متلهّفاً للدنيا، هي همه، وهي مقصده يبحث عنها، ويطمع فيها، ويركض وراء تحصيلها، ويتنازل عن كل أمرٍ في سبيل نيلها، ويضحي حتى بأمور دينه وإيمانه وعقيدته من أجلها، إذا كان كذلك أصبح بهذا اللّهف على الدنيا مثل الكلب في اللّهث، ومثلما ذُكِرَ أهل العلم: اللّهف واللّهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى، فالعالم الذي فيه اللّهف على الدنيا، أصبحت همه ورُكْنٌ إليها، وأُخْلِدَ إلى الأرض، واتَّبَعَ هواه، تُصبح حاله كحال الكلب في اللّهث.

ولاحظ الشبه العجيب قال: ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ وذاك أيضاً مثله؛ إن وعظ يلهف وراء الدنيا، وإن لم يوعظ يلهف وراء الدنيا، فلا يفيدُه سواءٌ وعظ أو لم يوعظ، وهو يلهف وراء الدنيا، وذاك يلهث إن ضرب أو ترك ﴿إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾، وذاك الذي رُكِنَ إلى الدنيا سواءً وعظ وخوف ونصح فهو يلهف، سواءً وعظ أو لم يوعظ، ذاك حرارة الحرص تُوجب له اللّهث، وهذا الذي شُبِّه به وهو عالم السوء شدة حرصه على الدنيا توجب له دوام اللّهف وراءها، سواءً وعظ أو لم يوعظ فإنه لا ينتفع، ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ أي: سواءً وعظ أو لم يوعظ هو في لهفه وراء الدنيا حيث أصبحت أكبر همه وغاية مقصوده.

قال -رحمه الله-: (الثامنة عشرة: أن هذا مثلٌ لكل من كَذَّبَ بآيات الله فليس مُختصاً).

(أن هذا مثلٌ لكل من كَذَّبَ بآيات الله فليس مُختصاً) يعني سواءً قيل إن الآية لها سبب نزول في شخص مُعين باسمه نزلت فيه الآية، أو قيل إنها عامة، فالأمر كما يقول الشيخ رحمه الله: (إن هذا المثل لكل من كَذَّبَ بآيات الله، فليس مُختصاً)، وهذا أخذه من قوله: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ فهذا مثلٌ لكل من كَذَّبَ بآيات الله، فليس مُختصاً بشخص معين.

قال -رحمه الله-: (التاسعة عشرة: ذُكر كونه -سبحانه وتعالى- أمر بقصِّ القصص على عباده).

(التاسعة عشرة: ذُكر كونه سبحانه وتعالى أمر بقصِّ القصص على عباده) لأنه في ختام هذا السياق قال: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾، فأمر بقص القصص على عباده، ومثل هذه القصص توقظ القلوب، وتطرد الغفلة، وتبعث في العبد الاعتبار والادِّكار والاتِّعاض، فهي نافعة، في القصص عبرة لأولي الألباب، ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى بقصِّ القصص، والمسلم الذي منَّ الله عليه بمعرفة هذا القصص يحمد الله على المِنَّة بمَعْرِفَتِهَا حتى يَنْعِظَ بالآخرين، ولا يكون هو العِظَةُ للآخرين، لأن السعيد من اتَّعَظَ بغيره، والشقي من اتَّعَظَ به غيره، فإذا وَفَّقَ المسلم لمعرفة القصص ومعرفة خطورة الأمر، وبدأ يُجاهِد نفسه، ويستعين بربه، كان على سبيل نِجاةٍ بإذن الله.

قال -رحمه الله-: (العشرون: ذُكر الحكمة في الأمر به).

(العشرون: ذُكر الحكمة في الأمر به) يعني في قصِّ القصص، الحكمة في ذلك في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هذه هي الحكمة؛ الحكمة في قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ إذا قصصت عليهم القصص بدأ الإنسان يتفكر، وإذا تفكر حصَّل العلم، وإذا حصَّل العلم حصل العمل واللُّجوء إلى الله، فتأتي الأمور مُتَدَرِّجَةً، يتفكر الإنسان فيعلم فيعمل ويجاهد نفسه ويستعين بربه سبحانه وتعالى.

قال -رحمه الله-: (الحادية والعشرون: قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ كقوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾. والله أعلم، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً).

(الحادية والعشرون: قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾) في ختام هذا السياق قال الله: ﴿سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا بِظُلْمٍ﴾ يقول الشيخ: (كقوله: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾)، وهذا تنبيه لطيف جداً من الشيخ -رحمه الله- لأن فيه تشابه بين هذه الآية والآية التي في سورة الجمعة، في الموضوع نفسه، قال: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ۚ بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] انظر التَّطَابُق، ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فَبَيْنَ الْآيَتَيْنِ تَطَابُقٌ، فإذاً قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ هو مثل قوله في سورة الجمعة: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾، هناك مَثَلُهُم الكلب، وهنا في سورة الجمعة مَثَلُهُم الحمار، وبِئْسَ الْمَثَلُ مَثَلُ أولئك الذين عندهم الآيات، ولكنهم كذبوا بآيات الله، وأعرضوا عنها، وأتبعوا أهواءهم، فَمَثَلُهُمْ بِئْسَ الْمَثَلُ.

في الآية الأولى مثلهم كمثل كلب إن تحمل عليه يلهث، أو تتركه يلهث، وفي الآية الثانية مثلهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً، وهذا يعني عنده علم ولا يعمل به، مثل الحمار الذي فوق ظهره الكتب المليئة بالعلوم النافعة لا يستفيد منها بشيء، لا يستفيد منها حرفاً واحداً، فهذا مثل ضربه الله سبحانه وتعالى لعالم السوء الذي عنده الآيات والعلوم ولكنه لا يعمل بها.

هذا السياق الكريم العظيم المبارك في سورة الأعراف فيه هذا المثل الذي ضربه الله سبحانه وتعالى لعالم السوء، وتضمن هذا السياق في هذه الآيات دَمَ عالم السوء الذي آتاه الله سبحانه وتعالى آياته ولكنه أعرض عنها، ولم يعمل بها، تضمن دَمَهُ من وجوه عشرة، تضمن دَمَ العالم الذي بهذه الصفة من وجوه عشرة ذكرها ابن القيم - رحمه الله تعالى - في كتابه "الفوائد"، في تحرير متين وبيان عظيم أقرأه عليكم بنصه من كلام ابن القيم - رحمه الله - في كتابه "الفوائد"، قال:

أحدها: أنه ضلَّ بعد العلم، واختار الكفر على الإيمان عمداً لا جهلاً.

وثانيها: أنه فارق الإيمان مُفارقةً من لا يعودُ إليه أبداً، فإنه انسلخَ من الآيات بالجملة كما تنسلخ الحية من قشرها، ولو بقي معه منها شيء لم ينسلخ منها.

وثالثها: أن الشيطان أدركه ولحقه بحيث ظفر به وافترسه، ولهذا قال: ﴿فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ ولم يقل تبعه، فإن في معنى (أتبعه) أدركه ولحقه، وهو أبلغ من (تبعه) لفظاً ومعنى.

ورابعها: أنه غوى بعد الرشد، والغى الضلال في العلم والقصد، وهو أخصُّ بفساد القصد والعمل، كما أن الضلال أخصُّ بفساد العلم والاعتقاد، فإذا أُفرد أحدهما دخل فيه الآخر، وإن افترنا فالفرق ما ذكر، أي: الغي في العمل، والضلال في العلم.

وخامسها: أنه سبحانه لم يشأ أن يرفعه بالعلم، فكان سبب هلاكه، لأنه لم يُرفع به فصار وبالاً عليه، فلو لم يكن عالماً كان خيراً له وأخف لعذابه.

وسادسها: أنه سبحانه أخبر عن حسنة همته، وأنه اختار الأسفل الأدنى على الأشرف الأعلى.

وسابعها: أن اختياره للأدنى لم يكن عن خاطر وحديث نفس، ولكنه كان عن إخلادٍ إلى الأرض، وميلٍ بكليته إلى ما هناك، وأصل الإخلاد اللزوم على الدوام، كأنه قيل: لزم الميل إلى الأرض، ومن هذا يقال: أخلد فلان بالمكان إذا لزم الإقامة به.

وثامنها: أنه رَغِبَ عن هُدَاهِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَجَعَلَ هَوَاهُ إِمَامًا لَهُ يَفْتَتِدِي بِهِ وَيَتَّبِعُهُ.

وتاسعها: أنه شَبَّهَهُ بالكلب الذي هو أَحْسَ الحيوانات هِمَّةً، وَأَسَخَطَهَا نَفْسًا، وَأَبْجَلَهَا وَأَشَدُّهَا كَلْبًا، ولهذا سَمِّيَ كَلْبًا.

وعاشرها: أنه شبه لَهْتَهُ على الدنيا وَعَدَمَ صَبْرِهِ عنها وَجَزَعَهُ لِفُقْدِهَا وَحِرْصِهِ على تحصيلها بِلَهْتِ الكلب في حالتي تركه والحمل عليه بالطرد، وهكذا، هذا إن تُرِكَ فهو لهْثَان على الدنيا، وإن وُعِظَ وَزُجِرَ فهو كذلك، فاللهْث لا يُفَارِقُهُ في كل حال كَلَهْتِ الكلب. انتهى كلام ابن القيم -رحمه الله تعالى-.

وأيضاً مما يُخْتَم به هذا المجلس؛ إشارة إلى حديث رواه البزار فيه معنى هذه الآية وتحذير مِمَّا حُذِرَ منه في هذا السياق المبارك، وهو حديث حَسَنُهُ أهل العلم عن حذيفة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (إِنَّمَا أَتَخَوَّفُ عَلَيْكُمْ رَجُلٌ قَرَأَ الْقُرْآنَ حَتَّى إِذَا رُئِيََتْ بِهَجَّتُهُ عَلَيْهِ، وَكَانَ رِذَاءً لِلْإِسْلَامِ غَيْرَهُ إِلَى مَا شَاءَ اللَّهُ، فَانْسَلَخَ مِنْهُ، وَنَبَذَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ، وَسَعَى عَلَى جَارِهِ بِالسَّيْفِ، وَرَمَاهُ بِالشَّرْكِ) قال: قلت: يا نبي الله، أيهما أولى بالشرك المَرْمِي أم الرَّامِي؟ -والرَّامِي من هو؟ مَرَّ معنا أنه: كان قرأ القرآن، ورُئِيََتْ بهجته عليه، وكان رداءً للإسلام- فسئل النبي ﷺ: أيهما أولى بالشرك المرمي أم الرامي؟ قال: "بل الرَّامِي"، الرامي أي: ذاك الذي كان يحفظ القرآن، ورُئِيََتْ بهجته عليه، وكان رداءً للإسلام، ولا عاصِمَ إلا الله، ولا حافظ إلا الله.

ولهذا أدعو نفسي وإياكم بعد سماعنا لهذا السياق العظيم المبارك أن نتأمل ملياً في الآية التي تلي هذا السياق، وهي قول الله تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِيٌّ وَمَنْ يُضِلِّ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٨].

نسأل الله عز وجل بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يهدينا أجمعين، اللهم اهدنا أجمعين إليك صراطاً مستقيماً، اللهم اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولنا فيمن توليت، اللهم إنا نسألك الهدى والتقى والعفة والغنى، اللهم إنا نسألك الهدى والسداد.

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

اللهم صلّ وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه.